وكان هؤلاء الاسرى يضحكون كلما قيل لهم ان الدائرة ستدور على المانيا. ولم يتصرفوا مطلقاً كاسرى بل كأنهم هم الفائزون. وكانوا في الغالب يالفون في عدد ما اغرقوهُ من السفن ويقولون ان الحرب ستنتهي في اول يوليو او اول اغسطس . الاَّ ان الذين ذاكرتهم من الانكليز كانوا يقولون ان الحرب تنتهي في اول نوفمبر ان لم تستنبط وسيلة لمنع فعل الغواصات

وسيأتي الكلام في الجزء التالي على كيف تمكن الحلفاء من الفوز على الغواصات وايصال الجنود من اميركا الى اوربا

مهد الساميين

(كاتب هذه المقالة الاستاذ جون بيترس الاميركي نشرها في الجزء الاخير من مجلة الجمعية الشرقية الاميركية وقد عربناها بتلخيص كثير)

الرأي الشائع الآن ان مهد الساميين او وطنهم الاول هو شبه جزيرة العرب ومنهُ انتشروا الى هنا وهناك من بقاع المعمورة . وهذا الرأي هو ركن كل ما كتب عن تاريخ الشرق الادنى في الخمسين سنة الماضية وقد كنتُ في مقدمة القائلين بهِ. وخيل اليَّ ان في جملة البراهين على صحة هذا الرأي وجود علاقة لغوية او شبه بين لغة المهاجرين السابقين واللاحقين من بلاد العرب شمالاً . وظهر من النقوش والكتابات التي وجدت في شمال سورية ان المهاجرين الاولين من الاراميين الى نواحي شمال سورية اقتبسوا بعض لغة المهاجرين الساميين الذين سبقوهم اليها كما ان العبرانيين والمؤابيين وغيرهم من الامم الارامية في اصلها تكلموا لغة لا تكاد تختلف عن لغة الكنعانيين . ومثل ذلك يقال عن الانباط فانهم عرب ولكن لغتهم كانت فرعاً من اللغة الارامية التي تكلم بها المهاجرون السابقون

ويقول اهل الرأي المتقدم ان المهاجرة الاولى من بلاد العرب شمالاً جرت في الالف الرابعة قبل المسيح (اي بين سنة ٣٠٠٠ و٤٠٠٠) فكانت نتيجتها توطن البابليين الساميين في شمال سورية شرقاً وغيرهم من الساميين غرباً تفصل بينهم الصحراء (بادية الشام) . وفي اواسط الالف الثالثة قبل المسيح طمى سيل

آخر من سيول المهاجرة شمالاً الى بلاد كنعان فاحتلها والى بابل فبدّل العنصر السامي الذي وجده فيها بعض التبديل . ثم جاء الاراميون بعد الف سنة اخرى فنزلوا في فلسطين شرقي الاردن وغربيهُ وكان منهم العبرانيون والعمونيون والمؤابيون والادوميون وانتشروا من هنالك شمالاً في سورية والعراق وبابل واصبحوا فيما بعد من حيث اللغة والآداب العنصر الاول من جبال فارس شرقاً الى بحر الروم غرباً وامتدوا شمالاً الى جبال طورس واوغلوا في اسيا الصغرى من بعض جهاتها

وبعد ذلك بالف سنة اخرى طمى سيل جديد من سيول المهاجرة في طليعته النبط ثم تلاهم اللخميون شرقاً والغسانيون غرباً وبلغ هذا السيل رباهُ بعد الف سنة اخرى في القرن السابع للميلاد اذ كان الفتح الاسلامي فدانت لهُ اسيا من جبال طورس الى الهند ومصر وشمال افريقية والاندلس . ومنذ ذلك العهد لم تطم سيول عظيمة من سيول المهاجرة شمالاً من بلاد العرب بل كل ما جرى ان بعض القبائل العربية الرحل هاجر شمالاً الى العراق وسورية وبابل لا ليقيم بها بل لينتقل من مكان الى مكان في طلب الكلاء لماشيته

وقد زعموا ان القبائل الرحل هي التي تهاجر الى البلاد المتمصّرة العامرة وحسبوا لذلك بلاد اسيا الوسطى وبلاد العرب التي سكانها قبائل رحل مثالاً للاقاليم التي هاجرت منها القبائل البادية الى كل ناحية وجهة منذ القدم. وبناء على هذا الرأي ظنّوا ان الذي حدا اهل اواسط اسيا وبلاد العرب على مهاجرة اوطانهم الاصلية ازدحامها بالسكان والماشية الى حدّ انها لم تعد تخرج من نباتها ما يكفيهم. ومنهم من زعم ان المهاجرات كلها معاشية في سببها وصفتها . والحقيقة ان الزحام يشتدُّ في بلاد الحضر اشتدادهُ في بلاد البدو بل اكثر . نعم ان القبائل البادية تميل الى المهاجرة من فطرتها ولكن يظهر من البحث في هجرات الشعوب الكبرى التي نعرفها ان الذين قاموا بكثير منها لم يكونوا رحّلاً بمعنى من المعاني

ثم ان الهجرات كما نعرفها لم تنشأ على الدوام لاسباب معاشية. صحيح ان لحبّ الفتح وجهاً معاشيًّا ولكن لا يصحّ حسبانهُ سبباً معاشيًّا وبعبارة اخرى ان الشعوب التي تدوخ البلدان وتفتحها لا تفعل ذلك بالضرورة لان اوطانها ضاقت

بها . فان سيل المهاجرة من اسيا الصغرى واليها لم يكد ينقطع في زمن من الازمان وكثير من هذه الهجرات سببهُ حب الفتح وقليل منها قامت به قبائل رحّل . والذي نعلمهُ ان الشعوب التي غزت اسيا الصغرى ودخلتها فاتحة كانت على الغالب ارقى بكثير من القبائل الرحل في درجة حضارتها . وهذا الحكم يصحّ ايضاً على الغزوات الاوربية وحركات امم مختلفة . فقد كانت حركة المهاجرة فيها في القرون المتأخرة من الشرق الى الغرب غالباً ولكن ثمة ما يدلُّ على ان حركة المهاجرة كانت فيها قبل ذلك العهد من الغرب الى الشرق . ففي القرن الثالث قبل المسيح هاجر الغاليُّون شرقاً ونزلوا غلاطية في اسيا الصغرى . ومنذ القرون الوسطى جعلت القبائل الجرمانية تهاجر شرقاً الى البلدان العقلبية

ولننظر الآن فيما عندنا من الادلة على حركات الشعوب السامية منذ قديم الزمان فنقول ان الادلة التي عندنا تناقض الرأي القائل ان العرب هاجروا من بلاد العرب جملة قبل هجرة الانباط منها . فقد جاء في التوراة وفي التقاليد العبرانية ان الاراميين اسلاف العبرانيين جاؤوا من الشمال اي من بين النهرين وكذلك الامم التي بينها وبين العبرانيين صلة نسب قريب اعني العمونيين والموابيين والادوميين جاؤوا في الاصل من بين النهرين ومرُّوا بفلسطين في طريقهم الى مصر وان وطنهم ليس صحراء العرب جنوبي فلسطين والى الجنوب الشرقي منها بل بلد آخر بعيد في الجهة المقابلة .

واول الرحلات من الجنوب في جهة الشمال بدأ في القرن السادس قبل المسيح على ما في التوراة . فانهُ بعد رجوع الاسرائيليين من السبي وعادة المملكة اليهودية وجدوا الادوميين نازلين في الجزء الجنوبي من اليهودية وقد احتلوا مدينتي حبرون ومريه لان النبطيين من سكان شمالي بلاد العرب كانوا قد اجلوهم عن ارضهم جنوبي يهوذا . ثم جعل النبطيون يتقدمون شمالاً شيئاً فشيئاً حتى امتدت مملكتهم في القرن الاول للميلاد من شمالي دمشق الى داخل بلاد العرب جنوباً ومن شرقي الاردنّ الى الفرات

هذا ما جاء في التوراة عن حركات الشعوب السامية في فلسطين وما حولها . ويؤخذ من مصادر اخرى انهُ تلت هجرة النبط هجرة اخرى من بلاد العرب افضت

الى انشاء مملكة الغسانيين في حوران غربي بادية الشام (حيث البلقاء الآن) ومملكة اللخميين وعاصمتها الحيرة شرقي الصحراء وعلى حدود بابل . ثم جاءت فتوح الاسلام العظمى في القرن السابع للميلاد ولم تتلها حركات اخرى ذات شأن يذكر الاَّ ما كان من حركات قبائل عنزه وشمّر وغيرهما مما لم يفض الى فتح حقيقي للبلاد الواقعة شمالي بلاد العرب او لاستيطانها على الدوام

وتشهد الآثار والعاديات بان الساميين دخلوا فلسطين نحو سنة ٢٥٠٠ قبل المسيح . وهناك ادلة اخرى تدلُّ على انهُ كان يقطن ارمينية شرقاً شعب سامي منذ القدم . ومن هذه الادلة ان اللغة الارمنية فرع من فروع اللغات الهندية الاوربية في حين ان الارمن انفسهم ساميُّون بدليل شدة شبههم باليهود في ملامحهم. نعم ان بين الامتين افراداً كثيرين يختلف بعضهم عن بعض كل الاختلاف في الملامح ولكن الغالب ان التميز بين الامتين اجمالاً يقتضي نظراً دقيقاً ودراسة كثيرة . فقد تجد بين الارمن كثيرين تظنهم من سكان الهند اي من السلالة الهندية الاوربية لشدة شبههم باعضائها وتجد بينهم ايضاً كثيرين يشبهون التتر المغول في شكلهم وملامحهم ولكن الارمني الذي هو نموذج قومهِ لا يكاد يتميز عن اليهودي الذي هو نموذج اليهود . والاثنان يشبهان صور الاشخاص في النقوش الاشورية حتى لو اخذت صورة من هذا الصور وعرضتها على خبير لظنها صورة ارمني او يهودي من معاصرينا . ومن غريب ما شاهدت ان العرب وهم ساميُّون يستطيعون تميز اليهودي عن العربي من ملامحها ولكنهم لا يستطيعون تميز الارمني من اليهودي اكثر مما استطعت انا

وزد على هذا كلهِ ان الارمن واليهود متشابهون في صفاتهم واخلاقهم العقلية والادبية وفي محافظتهم على قوميتهم فوق ما بينهم من الشبه الطبيعي .فقد غزت امم مختلفة الارمن منذ اول عهدنا بالتاريخ فابادت معالم لغتهم وديانتهم وحضارتهم ولكنها لم تستطع ان توصل اليهم هم اذى لانهم حافظوا على قوميتهم وابتلعوا قاهريهم كما ابتلع هؤلاء لغتهم وحضارتهم وديانتهم . وهذا اعظم دليل على ان ارمينية كانت فيما مرَّ من الزمن بلداً ساميًّا سكانهُ قوم يتكلمون لغة هندية اوربية وهم انفسهم شديدو الشبه باليهود في هيئتهم وشكلهم

ويلوح لي ان الادلة التي عندنا الآن تدلُّ على ان اسيا الصغرى وفي جملتها ارمينية او اسيا الصغرى والبلاد الواقعة جنوبيها من جبال طورس الى الفرات هي موطن الساميين الاول . ومن هذه البلاد هاجر جنوباً الساميون الجنوبيون في زمن قديم جداً فدخلوا افريقية وامتزجوا بامة بيضاء في الشمال وامة سوداء زنجية في الجنوب فنشأت الامة المصرية من هذا المزيج. وفي الوقت عينهِ انحدر الساميون الجنوبيون الى بلاد العرب فانشأوا فيها وفي الجزء الجنوبي منها خاصة ممالك رفيعة الحضارة كثيرة الثروة وعبر قسم منهم بوغاز باب المندب الى اثيوبيا (الحبشة). اما الذين دخلوا شبه جزيرة العرب منهم فبقوا صدة طويلة كأنهم محصورون فيها . وحال دون مهاجرتهم شمالاً قيام دولتين قويتين الى الشمال الشرقي والشمال الغربي الاولى الدولة الشنعارية (Sumerian) والثانية الدولة المصرية فتلك الدولتان وما بينهما من الصحراء المترامية الاطراف وقفت سداً منيعاً دون هجرة الساميين الجنوبيين شمالاً فانشأوا لانفسهم صنفين من اللغة والمدنية الواحد العربي الشمالي والثاني العربي الجنوبي

وهذا الامر اي دخول الساميين بلاد العرب وعزلتهم فيها لا بدَّ ان يكون قد جرى في زمن منوغل في القدم بدليل ان الامة المصرية كانت قبل ختام الالف الرابعة (قبل المسيح) قد تكونت من المزيج المذكور آنفاً ولم تبتدىء الالف الثالثة حتى كانت مصر قد شبت وترعرعت وتقوت فامتلكت سيناء ولم تحسب للاجانب حساباً ونظرت الى القبائل القليلة النازلة على حدودها الشرقية نظرة الامتهان لانحطاطها في سلّم العمران

وغاية هذا المقال ان الدلائل اللغوية والاثرية والتاريخية التي لدينا الآن تدلُّ على ما يظهر ان موطن الامة السامية الاول ليس بلاد العرب جنوباً بل اسيا الصغرى شمالاً والبلاد التي الى الشرق منها . وان الساميين ما زالوا منذ اوائل التاريخ ينحدرون جنوباً واول بلد استوطنوهُ بعد تحضرهم هو الصقع الواقع جنوبي جبال طورس من بابل شرقاً الى سورية غرباً . وفي ذلك العهد كانوا قد اخذوا يتحملون جنوباً والمرجح ان وطنهم الاول كان الى الشمال والشرق وان ارمينية كانت جزءاً منهُ